الحياة الطيّبة
السنة 25
العدد47
خريف 2021
ملف العدد

الهويّة الإسلاميّة في ظلّ تحدّيات العولمة الثقافيّة المعاصرة -محمّد عابد الجابريّ أنموذجًا-

د. محمّد محمود مرتضى[1]

مُستَخلَص:

تناقش هذه المقالة مفهوم الهويّة الإسلاميّة في ظلّ تحدّيات العولمة الثقافيّة المعصرة، في مقاربتين:

- الأولى: الوقوف على ما تعرّضت له الهويّة الإسلاميّة من هجوم من قِبَل مؤسّسي العولمة وأنصارها، فيهدف البحث إلى إظهار خصوصيّة الهويّة الإسلاميّة، وكيف حافظت على نفسها، وعبّرت عنها بوصفها هويّة عالميّة؟ فناقش البحث التحدّيات التي فرضتها العولمة الثقافيّة الهادفة إلى إلغاء التعدّد الثقافيّ والخصوصيات التاريخيّة للهويّة. كما كشف عن أنّ المسلمين قد حافظوا على الهويّة الإسلاميّة عبر التاريخ الإسلاميّ من خلال القيم العليا التي اعترف بها الإسلام، كما أنهم حوّلوا الهويّة الإسلاميّة من نظرية عقديّة إلى سلوك تاريخيّ. وتطرّق البحث إلى الهويّة الإسلاميّة في ظل الإرهاب الثقافيّ الذي مارسته العولمة، خصوصًا عندما سعت العولمة إلى أَمرَكة الهويّة.

(1) أستاذ تاريخ الفلسفة الغربيّة في جامعة المعارف، من لبنان.

- الثانية: قارب البحث مسألة الهويّة الإسلاميّة وعلاقتها بالغرب عند أحد المفكّرين العرب، وهو محمّد عابد الجابري، فتناول مفهوم الهويّة الإسلاميّة عنده تناولاً نقديًّا، خصوصًا في مناقشته للعلاقة بين الإسلام والعروبة. كذلك تطرّق الجابريّ في مناقشته لعلاقة الهويّة الإسلاميّة بالغرب إلى مسائل متعدّدة تتعلّق بالقوميّة والإسلام، لنجد أنّ الجابريّ يقودنا إلى نوع من العمى التاريخيّ عندما يقابل بين العروبة والإسلام.

كلمات مفتاحيّة:
الهويّة الإسلاميّة، العولمة، محمّد عابد الجابريّ، الثقافة، التعدّديّة.

مقدمة:

يمتلك البحث في مفهوم الهويّة[1] الإسلاميّة الكثير من الشرعيّة في ظلّ تحدّيات العولمة؛ ذلك أنّ الهويّة الإسلاميّة قد تعرّضت لهجوم مكثّف من قِبَل مؤسّسي العولمة وأتباعها؛ بهدف صهرها في الهويّة المُعَولَمة تحت ضغط العولمة الثقافيّة، غير أنّها -أي الهويّة الإسلاميّة- تكتسب خصوصيّتها من تاريخها التراثيّ الغنيّ والأصيل؛ ولهذا فقد حافظت على عناصر قوّتها في مواجهة الحملات المعولمة عندما عبّرت عن نفسها هويّة عالميّةً، وهو ما مكّنها من الصمود.

إنّ خوض غمار البحث في هذه القضية، سوف يلزمنا، بشكل أو بآخر، بمقاربة أفكار بعض المعاصرين مقاربة نقديّة، وأعني تحديدًا محمّد عابد الجابريّ، الذي تناول مفهوم الهويّة الإسلاميّة في قراءة لم تخلُ من تجاهل للخصوصيّات التاريخيّة للهويّة العربيّة، بل وجعلها مجرّد هويّة ثقافيّة بالعودة إلى التراث وقواميس اللغة...

وهذا ما سنعمل على تظهيره في هذه البحث؛ عندما نتحدّث عن مشكلة العلاقة بين العروبة والإسلام؛ كما يراها الجابريّ، وكذلك عندما أثرنا أزمة الهويّة في المرجعيّات التراثيّة والنهضويّة من وجهة نظر الجابريّ، وفي ما بعد كيف أراد الجابري أن يؤكّد أنّ الهويّة العربيّة الإسلاميّة هي هويّة سلبية مستقبلة لفعل الآخر الغريب في الجسد الثقافيّ العربيّ الإسلاميّ؟

(1) آثرنا الابتعاد عن تعريف الهويّة؛ لأنّه سوف يخرجنا عن سياق البحث؛ ذلك أنّ ثمّة عناصر ومحدّدات خاصّة وعامّة تدخل في تحديد معنى الهويّة. من هنا اكتفينا بالإشارة إلى البُعد الثقافيّ في الهويّة؛ لارتباطه الوثيق بالبحث.

أوّلًا: العولمة وصدام الهويّات بين الإسلام والغرب:

1. الهويّة الإسلاميّة وتحدّيات الثقافة الواحدة:

تمارس الثقافة دورها في صياغة الهويّة، فنجد أنّ هناك من يحدّد الهويّة على أساسها، حيث إنّ «الثقافة هي التي تشكل الهويّة، هي التي تعطي الاسم والمعنى والصورة، هي التي تجعل من جماعة ما متميّزة أو مختلفة عن غيرها من الجماعات»[1].

غير أنّ ذلك لا يعني أنّ الهويّة يمكن أن نختصرها بالثقافة، بل إنّ الهويّة تنطوي على عناصر متعدّدة، وتكون الثقافة عنصرًا من هذه العناصر، وهو ما يراه بعض الباحثين من: «أنّ الثقافة تشكّل جزءًا من مفهوم الهويّة وليس كلّه»[2].

وهناك مَنْ يذهب أكثر إلى تحديد علاقة الثقافة بالهويّة، بحيث يجد هؤلاء أنّ الهويّة الواحدة قد تنطوي على ثقافات عدّة، وهذا يعني أنّ الهويّة قد تتضمّن تعدّدًا ثقافيًّا؛ أي أنّ الهويّة لا تُختصر بثقافة واحدة؛ بقدر ما أنّها قد تجمع ثقافات عدّة ضمن بوتقة الهويّة الواحدة، وفي هذا الشأن يقول أحد الباحثين بأنّ «ثمّة علاقة وثيقة بين الهويّة والثقافة، إذ ما من هويّة إلا وتختزل ثقافة، فالثقافة في عمقها وجوهرها هويّة قائمة الذات، وقد تتعدّد الثقافات في الهويّة الواحدة، كما أنّه قد تتنوّع الهويات في الثقافة الواحدة، وهذا ما عبّر عنه بالتنوّع في إطار الوحدة، فقد تنتمي هويّة شعب من الشعوب إلى ثقافات متعدّدة تمتزج عناصرها وتتلاقح مكوّناتها، فتتبلور في هويّة واحدة، وعلى سبيل المثال: فإنّ الهويّة الإسلاميّة تتشكّل من ثقافات الشعوب والأمم التي دخلها الإسلام، سواء

(1) عدلي، هويدا: «العولمة والهويّة الثقافيّة في أفريقيا»، مجلة دراسات، ليبيا، العدد10، خريف 2002م، ص40. من على موقع المجلة على شبكة الإنترنت: www. Dirasaaat. Com

(2) مطر، سليم: مقالات في الهويّة، جنيف، 2003م، على موقعه الإلكترونيّ الشخصيّ: ww.salimmater. com

اعتنقته أم بقيت على عقائدها، فهذه الثقافات التي امتزجت بالثقافة العربيّة الإسلاميّة، وتلاقحت معها، هي جماع هويّات الأمم والشعوب التي انضوت تحت لواء الحضارة العربيّة الإسلاميّة»[1].

وهكذا نجد أنّ الهويّة الإسلاميّة تتحوّل إلى هويّة إنسانيّة، هويّة عامّة خارج إطار الانتماء الدينيّ المذهبيّ الضيّق وحده، فهي هويّة منفتحة ومركّبة تشمل شعوبًا وأعراقًا مختلفة؛ ما يعني أنّ التعدّدية والاختلاف هو جزء من الهويّة الإسلاميّة، ولا يمكن اختصار هذه الهويّة بشرط واحد أو حالة واحدة. وبالفعل فإنّ بعض الباحثين ينوّهون إلى ذلك عندما يعتبرون أنّ «توهّم إمكان توحّد أهل الشرائع السماويّة، على شريعة واحدة وملّة واحدة، وتحوّلهم من أمم مؤمنة ومتعدّدة إلى أمّة مؤمنة واحدة، إنّ توهّم إمكانيّة ذلك، ومن ثمّ السعي إلى تحقيقه، خصوصًا إذا كان هذا السعي بغير المجادلة بالحكمة والموعظة الحسنة، هو معاندة لإرادة الله سبحانه، وسعي ضدّ سنّته التي لا سبيل إلى تبديلها أو تغييرها، فإرادة الله سبحانه وسنّته مع تعدّد الأمم والشرائع، فضلًا عن الثقافات والهويّات والقوميّات والأمم، وليس مع وحدتها أو توحيدها»[2].

ويمكننا أن نؤكّد على الطابع التعدّديّ للهويّة الإسلاميّة حتى من خلال النصوص القرآنيّة، والتي هي نصوص كثيرة وردت في القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ﴾[4]. وقوله ايضًا: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ

(1) التويجريّ، عبد العزيز بن عثمان: الحفاظ على الهويّة والثقافة الإسلاميّة في إطار الرؤيا المتكاملة. من على الموقع الإلكترونيّ: www. Al- emam. com

(2) عمارة، محمّد: الإسلام والوحدة القوميّة، ط2، بيروت، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، 1979م، ص70.

(3) سورة المائدة، الآية 48.

(4) سورة هود، الآيتان 118-119.

يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾[1].

حتى أنّ الرسول الكريم ﷺ، في علاقته مع الأمم من غير الإسلام، نجده قد تعامل مع هذه الأمم وفق شرائعها ونواميسها وثقافاتها، وهو ما أمره به الله في كتابه العزيز إذ يقول: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٤٢ وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٣ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ﴾[2].

فالهويّة الإسلاميّة إذن هويّة تعدّد، وهي تجمع تحت رايتها الكثير من الشعوب المنتسبة إليها، بل إنّ كلّ مسلم في العالم يمتلك هويّته الإسلاميّة؛ بالإضافة إلى هويّته الخاصّة، أي هويّة المكان والمولد الذي امتلكها بالإضافة إلى الهويّة الإسلاميّة، وحتى عندما يجري الحديث عن هويّة إسلاميّة؛ فإنّ ذلك لا يعني عزل هذه الهويّة عن غيرها من الهويّات؛ ذلك أنّ الهويّة الإسلاميّة تشترك مع الهويّات الأخرى في عناصر التقاء وتوافق[3].

على هذا النحو، فإنّ النظر إلى الإسلام والهويّة الإسلاميّة في ظلّ العولمة، ومحاولة اختصارها بعنصر واحد يبدو أمرًا غير ممكن، وبالتالي يجب عدم الانصياع لدعاوي العولمة التي تحاول أن تختصر الهويّة بثقافة واحدة وبشكل واحد، وقد تنبّه إلى ذلك الشيخ جمال الدين الأفغانيّ قبل ظهور العولمة بكثير عندما قال: «فيا أيّتها الأمّة المرحومة هذه حياتكم

(1) سورة الأنعام، الآية 38

(2) سورة المائدة، الآيات 42-44.

(3) عبد الحميد، محسن: مذهبية الحضارة الإسلاميّة وخصائصها، ط1، بغداد، شركة الرشد للطباعة والنشر، 2001م، ص60 وما بعدها (بتصرّف).

فاحفظوها، وسعادتكم فلا تبيعوها بثمن دون الموت، هذه هي روابطكم الدينيّة لا تفرّقكم الوساوس ولا تستهوينّكم الترّهات، ولا تدهشكم زخارف الباطل، ارفعوا غطاء الوهم عن باصرة الفهم، واعتصموا بحبل الرابطة الدينيّة التي هي أحكم رابطة اجتمع فيها العربيّ بالتركيّ، والفارسيّ بالهنديّ، والمغربيّ بالمصريّ، فهي صلة من أمتن الصلات ساقها الله إليكم، وفيها عزّتكم ومَنَعَتكم وسلطانكم وسيادتكم فلا توهنوها»[1].

كذلك هناك من نبّه إلى عدم التفريط والتقليل من أهمّيّة الهويّة الإسلاميّة؛ بوصفها هويّة التعدّد والانتماء المختلف، ومنهم الشيخ الكواكبيّ عندما يقول: «ومن أقبح آثار نظرتهم الكمال في الأجانب، كما ينظر الصبيان الكمال في آبائهم ومعلّميهم، فيندفعون لتقليد الأجانب واتّباعهم فيما يظنّونه رقّة وظرافة وتمدّنًا وينخدعون لهم فيما يغشّونهم به: كاستحسان ترك التصلّب في الدين والافتخار به، فمنهم من يستحيي من الصلاة في غير الخلوات، وكإهمال التمسّك بالعادات القوميّة، فمنهم من يستحيي في عمامته، وكالبعد عن الاعتزاز بالعشيرة كأنّ قومهم من سقط البشر، وكنبذ التضرّب للرأي كأنّهم خلقوا قاصرين، وكالعقود عن التراحم والتناصر بينهم كي لا يشمّ من ذلك رائحة التعصّب الدينيّ وإن كان على حقّ، إلى غير ذلك من الخصال الذميمة في أهل الخور من المسلمين»[2].

فالحديث عن الهويّة الإسلاميّة هو حديث عن التفاعل والاتصال والتأثّر والتأثير بين الإسلام وغيره من الشعوب والديانات؛ وذلك أنّ الهويّة هي حالة حضاريّة، والحضارة كما يرى بعض الباحثين هي «حركة متواصلة ترفض الثبات المطلق لصالح الثبات النسبيّ، أي ولادة متواصلة للهويّة وفتح حيز الحركة فيها... وعلى هذا فإنّ العامل الرئيسيّ في ثبات الهويّة يكمن في قدرة مفرداتها على إطلاق الإنسان، باتجاه إشباع حاجاته المعنويّة

(1) الأفغانيّ، جمال الدين؛ عبده، محمّد: العروى الوثقى، ط1، القاهرة، دار العرب، 1957م، ص48.
(2) الكواكبي، عبد الرحمن: أمّ القرى، حلب، المطبعة العصرية، 1959م، ص182.

والمادّيّة، فينحصر التغيير في العناصر المعيقة فقط، وهذا يعادل القدرة على إنتاج الفريد، أو على الاستيعاب الفريد في إطار الحضارة القائمة»[1].

وكذلك تعترف الهويّة الإسلاميّة بالتطوّر والتغيّر، فهي كغيرها من الهويّات تخضع لهذا التطوّر ولهذا التغيّر، والإسلام نفسه يؤكّد على التعارف والتقارب الحضاريّ والثقافيّ، كما أنّ الإسلام له الحقّ في الاستفادة من تجارب الأمم والحضارات الأخرى، بل إنّ «إقامة العلاقات الدوليّة بين الأمم والشعوب والدول والحضارات على قاعدة المساواة في الكرامة، والعدالة في تبادل المنافع وفق الرؤية الإسلاميّة هو امتثال لحكم الله سبحانه.. وليست للإسلام وأمّته وحضارته وعالمه مشكلة في إقامة علاقات دوليّة ونظام عالميّ رشيد... بل إنّ مشاركة المسلمين في إقامة هذه العلاقات الدوليّة العادلة هو تكليف إلهيّ فرضه الله سبحانه وتعالى على المسلمين»[2].

وهكذا نجد أنّ محاولة الثقافة المعولمة تحويل الهويّة الإسلاميّة إلى هويّة فارغة من محتواها التعدّديّ والحضاريّ والثقافيّ، يجعل من هجوم العولمة على الهويّة الإسلاميّة بحجّة توحيدها داخل ثقافة واحدة أمرًا غير قابل للتحقّق، طالما أنّ الهويّة الإسلاميّة تعيش شرطًا حضاريًّا مقتضاه التفاعل الحضاريّ، وليس التبعيّة والانغلاق والعزلة؛ كما تريد ذلك العولمة والقائمين عليها.

2. الهويّة الإسلاميّة عبر التاريخ الإسلاميّ:

لقد تشكّلت الهويّة عبر تاريخ الإسلام، فظهرت بذلك مبادئها وعقيدتها؛ وهو ما يجعل من هذه الهويّة مسألة حضارية بامتياز، وقد حرص المسلمون

(1) الفريجي، عبد الله: جدليّة الثابت والمتحرّك وحدوده الممنوعة والمسموح في الحضارة والتفاعل الحضاريّ، ص20.

(2) عمارة، محمّد: النظام العالميّ الجديد، رؤية إسلاميّة، على الرابط الآتي:
http://www.alsadrain.com/maowsoaa8/-.htm .

على هويتهم الحضارية والإنسانية عبر التاريخ، فحاولوا قدر الإمكان أن يتمسّكوا بالهويّة الإسلاميّة والاعتزاز بها، حتى في حالات الحروب، خصوصًا أن ابن خلدون ناقش كيف يمكن للهويّة أن تتغيّر في حالة الصدام مع الآخر، عندما ذكر في مقدّمته مسألة مهمّة، وهي الكيفيّة التي ينعكس فيها موقف الخاسر أمام موقف المغلوب، فيبني هويّته وعاداته وتقاليده؟ والسبب في ذلك كما يرى ابن خلدون «أنّ النفس أبدًا تعتقد الكمال في من غلبها وانقادت إليه.. لما تغالط من أنّ انقيادها ليس لغلب طبيعيّ، وإنّما هو لكمال الغالب ولما انتحله من العوائد والمذاهب»[1].

إذن استطاع المسلمون أن يحافظوا على الهويّة الإسلاميّة عبر التاريخ الإسلاميّ، بما تمثّله من قيم عليا من التسامح والاعتراف بالآخر، حيث يذكر أبو الحسن البلاذريّ ما حصل بين المسلمين وهرقل فيقول: «لمّا جمع هرقل للمسلمين الجموع، وبلغ المسلمين إقبالهم إليهم لوقعة اليرموك، ردّوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج، وقالوا: قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم، فأنتم على أمركم»[2].

لقد استطاع المسلمون أن يحوّلوا الهويّة من مجرد نظرية وانتماء عقديّ ودينيّ إلى سلوك تاريخيّ، من حيث العدل وإحقاق الحقّ، فيكون العدل إذن عنصرًا من عناصر الهويّة الإسلاميّة، كما لدى المسلمين المعاصرين، بل إنّ هذه الهويّة جعلت الكثير من الأمم والشعوب تدخل في الإسلام وترغب بالهويّة الإسلاميّة.

لذا، تمكّن القدماء من المحافظة على الهويّة الإسلاميّة، بوصفها هويّة تعدّدية وقابلة للتواصل والتفاعل مع الأشخاص ومع الحضارات، وبوصفها هويّة لكلّ الناس أيضًا.

(1) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمّد: مقدّمة ابن خلدون، ط5، بيروت، دار القلم، 1984م، ص147.
(2) البلاذريّ، أبو الحسن: فتوح البلدان. تحقيق: رضوان محمّد رضوان، مصر، مطبعة السعادة، 1959م، ص143.

وقد قامت الهويّة الإسلاميّة على عنصر مهمّ؛ وهو عنصر العدل، وبهذا تمكّن المسلمون من صيانة الهويّة وعدم سقوطها في تقليد الهويّات الأخرى، خصوصًا وأنّ الهويّة في الإسلام كانت عاملًا مهمًّا في شرح الآليّة التي يصبح فيها المسلم إمامًا لقومه، فالهويّة عنصر حاسم في مفهوم الإمامة.

3. الهويّة الإسلاميّة والإرهاب الثقافيّ:

لقد سعت العولمة الثقافيّة إلى الهيمنة المعولمة على جميع أشكال الهويّات في العالم، ومن ضمنها الهويّة الإسلاميّة، حيث نجد أنّ العولمة سعت إلى أَمركَة الهويّة الإسلاميّة؛ لذلك نرى أنّ العلاقة بين الهويّات والثقافة المعولمة هي علاقة صدام وصراع، فنجد أنّ الكثير من الباحثين الذين يبحثون في الهويّة قد كشفوا عن غاية العولمة بتحويل الهويّة إلى أسطورة، ومنهم علي حرب، الذي رأى أنّ «الإنسان يتعولم الآن بطريقة تتحوّل معها الهويّة إلى أسطورة، (...) لذا لا خوف من أن تسيطر لغة واحدة على سائر اللغات، فالحياة تولد بالشبيه، كما تولد بالمختلف»[1].

فالمشكلة في أنّ الذين يتحدّثون عن العولمة هم من يسوِّقون للعولمة على أنّها محاولة من أجل التحرّر «من ربقة الدولة القوميّة إلى أفق الإنسانيّة الواسع، تحرّر من نظام التخطيط الآمر الثقيل إلى نظام السوق الحرّة، تحرّر من الولاء لثقافة ضيّقة ومتعصّبة إلى ثقافة عالميّة واحدة يتساوى فيها الناس والأمم جميعًا، تحرّر من التعصّب لأيديولوجيا معيّنة إلى الانفتاح على مختلف الأفكار، من دون أيّ تعصّب أو تشنّج»[2].

وإذا كان المقصود بالعولمة الثقافيّة التحرّر من الثقافة الضيّقة، فإنّنا هنا نصل إلى مسألة مهمّة، وهي أنّ العولمة تمارس إرهابًا ثقافيًّا ضدّ

(1) حرب، علي: حديث النهايات، فتوحات العولمة ومستقبل العالم. نقلًا عن: العليان، عبد الله العلي: «بين رفض العولمة وقبولها، محاولة لتفكيك علي حرب المعولم»، صحيفة الخليج، 1-11-2004م.
(2) أمين، جلال: «العولمة والدولة»، ضمن أعمال ندوة «العرب والعولمة»، التي نظمها مركز البحوث العربيّة في القاهرة، مايو 2001م، ص163.

الهويّات في العالم؛ عندما لا تريد أن تبقي أيّ نمط من أنماط الثقافة خارج حدودها، فالعولمة تحاول أن توحّد الثقافات في نمط واحد؛ وهو ما يعبّر عنه بعض الباحثين بالقول: «إنّ الذي تجري عولمته ليس إلّا سلعًا وخدمات وأفكارًا بعينها، ذات طبيعة وخصائص معيّنة، أفرزتها ثقافة بعينها... إنّ هذه العولمة في الحقيقة إنّما هي عولمة نمط معيّن من الحياة»[1].

هكذا لا تعود العولمة الثقافيّة محاولة لنشر الثقافة الإنسانيّة، بل تقوم على نحو إرهابيّ باختراق الهويّات الثقافيّة للأمم والأفراد والشعوب. وجدير بالذكر أنّ محاولة قضم الهويّات الثقافيّة ليست نتاج عصر العولمة، بل إنّها قديمة قِدَم التاريخ «إنّها فكرة طوباويّة تتكرّر في كلّ عصر بثوب جديد، ابتداء من جمهوريّة أفلاطون في القرن الرابع قبل الميلاد، ثمّ مدينة الفارابيّ الفاضلة في القرن العاشر الميلاديّ، مرورًا بتوماس مور سنة 1516م في مؤلَّفه اليوتوبيا، ثمّ فرانسوا ريليه سنة 1534م عندما تحدّث عن جزيرته المثاليّة التي يترأّسها الفلاسفة، حيث يسود في جزيرته التكامل والتعاون، وتتحقّق السعادة الإنسانيّة المنشودة، وتختفي مظاهر الظلم والتناحر الطبقيّ، ويسود العدل والحكمة وحسن النيّة، في ظلّ حكومة عادلة وموظفين فضلاء منضبطين»[2].

وعندما تسعى العولمة إلى قضم هذه الثقافات، فإنّها تريد أن تسحقها وتسحق التميز والاختلاف والتفرّد؛ ذلك أنّ العولمة «لا تكتفي بتسيّد الثقافة، وإنّما تنفي الثقافة من حيث المبدأ؛ لأنّ الثقافة التي يجري تسيّدها تعبّر عن عداء شديد لأيّة صورة من صور التميّز والتفرّد، بل إنّها تسحق هذا التميّز والتفرّد سحقًا»[3].

(1) جلال، العولمة والدولة، م.س، ص44.

(2) عبيد، نايف علي: «القرية الكونيّة.. واقع أم خيال»، مجلّة المستقبل العربيّ، السنة 23، العدد 260، تشرين أوّل 2000م، ص145.

(3) أمين، جلال: «العولمة والهويّة الثقافيّة والمجتمع التكنولوجيّ الحديث»، مجلّة المستقبل العربيّ، السنة 21، العدد 234، آب 1998م، ص72.

إنّها، أي العولمة، لا تريد أن تبقي على الخصوصيّات للشعوب والأمم، بل على العكس من ذلك إنّها تحاول نسف القيم الخاصّة بهذا الشعب أو ذاك، وعندما تفعل العولمة ذلك، فإنّه لا يبقى من الخصوصيّة سوى اسمها. إنّها تحاول، أي الرأسمالية الأمريكيّة، أن تقضي على كلّ خصوصيّة ولا يبقى أي شيء، إنّها تنال من مفهوم الخصوصيّة نفسه، ومن مفهوم التاريخ؛ كما يرى بعض الباحثين إنّه لم يعد للخصوصيّة القوميّة من وجود «بل مفهوم الخصوصيّة نفسه، وليس تأريخًا معيّنًا، بل فكرة التأريخ، وليس هويّة بعينها، بل كلّ الهويات، وليس منظومة قيميّة، بل فكرة القيمة نفسها»[1].

فالعولمة، إذن، تريد أن تحطّم الثقافات، وتريد أن تقتلع شعوبًا بالكامل من وجودها الإنساني والتاريخيّ على نحو إرهابي. فقد جاء في دراسة لبرنامج الأمم المتّحدة «أنّ نصف اللغات المحلّيّة في العالم في طريقها إلى الزوال، الأمر الذي يهدّد الثقافات والبيئة في آن واحد، وقد عدّت هذه الدراسة التي أعدّها فريق من خبراء هذا البرنامج، أنّ أسرار الطبيعة التي تتضمّنها الأغاني والقصص والفنّ والصناعات الحرفيّة لدى الشعوب الأصليّة قد تختفي إلى الأبد، بسبب ظاهرة العولمة المتصاعدة في جميع المجالات... وأنّ عدد اللهجات المحلّيّة في العام هي ما بين 5-7 آلاف لهجة، منها ما يقرب من 5 آلاف لهجة أصليّة، وأنّ هناك أكثر من 2500 لغة مهدّدة بالانقراض على المدى القصير، وأنّ 234 لغة أصليّة معاصرة اختفت كليًّا. وينتهي الخبراء إلى التحذير من أنّه هناك احتمال اختفاء 90% من اللغات المحلّيّة في العالم في القرن الحادي والعشرين»[2].

وهكذا لا تبقى الهويّة الإسلاميّة بمنأى عن هذا الهجوم الإرهابيّ الذي يريد أن يدخل كلّ القيم في عالم سوق العولمة؛ وذلك أنّ هذه السوق

(1) المسيري، عبد الوهاب: صراع الحضارات أم حوار ثقافات، القاهرة، منشورات منظمة تضامن الشعوب الآسيويّة والأفريقيّة، 1997م، ص103.

(2) «العولمة تهدّد باختفاء اللغات المحلّيّة والثقافات»، موقع قناة الجزيرة الفضائيّة على شبكة الإنترنت: www.Aljazeera.net 2001/2/10م.

المعولمة ترفض «اعتبار وجود خصائص وطبائع ثقافيّة أو سيكولوجيّة محلّيّة، وهذا يفقد تداول السلع طبيعته الملموسة داخل الأسواق التقليديّة (وطنيّة وجهويّة ودوليّة) ليصبح مجرّدًا داخل سوق من نوع جديد»[1].

بالطبع لا تريد هذه العولمة لأيّ ثقافة أن تستمرّ، ومن ضمنها الثقافة الإسلاميّة لتبقى النزعة المهيمنة هي للثقافة الغربيّة، من أجل تحقيق النزعة المركزيّة الضيّقة ونسف جميع الهويّات؛ من بينها الهويّة الإسلاميّة، «فمنذ فجر الحضارة الأوروبيّة الغربيّة، تبدو النزعة المركزيّة لصيقة بالنموذج الحضاريّ الغربيّ، منذ العصر الرومانيّ الذي رأى أصحابه أنّ الإنسان هو الرومانيّ الحرّ وحده، وما عداه برابرة، وأنّ ما يتديّن به الرومانيّ هو الدين الوحيد، وما عداه واجب استئصاله»[2].

فالحضارة الغربيّة هي الحضارة الأساسيّة، وهي التي يجب أن تستمرّ وتعيش، في حين على كلّ الهويّات والحضارات الأخرى أن تكون تابعة لها. إنّها، أي الحضارة الغربيّة، وريثة الحضارة اليونانيّة والرومانيّة، حيث إنّ «اليونانيّين والرومانيّين نظروا إلى أنفسهم على أنّهم هم وحدهم المتمدّنون. أمّا كلّ ما كان يطلقون عليهم لفظة البرابرة، ومنذ ذلك الحين، والأوروبيّون يعتقدون أنّ تفوّقهم العنصريّ على سائر البشر أمر واقع، ثمّ إنّ احتقارهم لكلّ ما ليس أوروبيًّا من أجناس الناس وشعوبهم، قد أصبح إحدى الميزات البارزة في المدنيّة»[3].

لقد تعرّضت الهويّة الإسلاميّة لهذا الهجوم الثقافيّ الإرهابيّ، بحجّة إلغاء الخصوصيّات، وبحجّة تحقيق الديمقراطيّة والليبراليّة من أجل خير

(1) ولعلو، فتح الله: تحدّيات عولمة الاقتصاد والتكنولوجيا في الدول العربيّة. نقلًا عن: يفوت، سالم: «هويتنا الثقافيّة نحو تناول نقدي»، مجلة فكر ونقد، العدد 11.

(2) عمارة، محمد: مستقبلنا بين العالميّة الإسلاميّة والعولمة الغربية، من على موقع: www.islamna.org

(3) أسد، محمّد: الإسلام على مفترق الطرق، تحقيق: عمر فروخ؛ مصطفى الخالدي، ط4، بيروت، دار العلم للملايين، 1962م، ص52.

الإنسان، في حين أنّ الغرض الأساس من وراء هذا الهجوم المعولم على الهويّة الإسلاميّة كان اعتبارها من الهويّات الإرهابيّة، وهو ما تمثّل في حدث 11 أيلول للعام 2001، وبداية الهجوم على المسلمين وتصنيفهم إلى مسمّى الهويّة الإرهابيّة الإسلاميّة، بحيث أصبح لفظ مسلم مرتبطًا أشدّ الارتباط بلفظ الإرهاب!

ثانيًا: التناول النقديّ لسؤال الهويّة بين الإسلام والغرب عند الجابريّ:

1. مشكلة الهويّة بين الإسلام والعروبة عند الجابريّ:

يطرح الجابريّ مشكلة العروبة والإسلام في سياق مناقشته للهويّة الإسلاميّة من جهة، والعربيّة من جهة أخرى، وهو يعود في مناقشة هذه المسألة إلى الأحكام التي ترى أنّ العرب وحدهم هم المسلمون، فهو يقول: «نعم إنّ معظم الذين يثيرون هذه القضيّة اليوم ينطلقون في الغالب من القول إنّه لا تناقض بين العروبة والإسلام، أو ينتهون إلى النتيجة نفسها إذا هم فضّلوا الانطلاق من بعض جوانب المسألة، وهناك من يحاول إيجاد صيغ تعبيريّة تبرز التكامل بين العروبة والإسلام، صيغ تبعد من سطح الخطاب معنى التقابل والتعارض، فتؤكّد مثلًا أنّ العرب مادّة الإسلام، أو أنّ الإسلام عربيّ؛ بمعنى أنّه دين العرب أولًا، باعتبار أنّ القرآن كتاب عربيّ، ولكنّ التعامل الذي تحاول مثل هذه الصيغ التعبيريّة إبرازه لا ينفذ إلى عمق المسألة المطروحة، «فالتكامل» هنا إنّما هو تكامل على صعيد تلطيف العبارة وتغييب الوجه الحادّ من المشكل؛ ذلك أنّ هذه الصيغ منحازة في واقع الأمر، فهي تؤكّد على إعطاء الأولويّة، إنْ لم يكن للعروبة على الإسلام، فلما هو عربيّ في الإسلام»[1].

(1) الجابريّ، محمد عابد: مسألة الهويّة العروبة والإسلام.. والغرب، ط4، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربيّة، 2016م، ص22.

وبالفعل، يوافق الجابريّ على هذه المسألة؛ إذ إنّه يؤكّد على أنّ العرب هم المسلمون، ولكنّ الجابريّ لا يقدِّم تعريفًا للهويّة هنا، بل يتحدّث عن مُسلّمات دون أن يخوض في التأكيد التاريخيّ لهذا الزعم، فهو يستخدم لغة بعيدة عن البحث التاريخيّ العلميّ، ودون أن يذكر من هم أصحاب هذه النزعة التي تربط بين العرب والإسلام، وهو يعود إلى المرجعيّة التراثيّة، فيتحدّث عن العرب باستخدام لغة من قبيل: يقال، ويقولون، ولا يذكر لنا مَنْ الذي يقول ذلك. وهذا هو الضعف الأساس في طرح الجابريّ، غير أنّه فعلًا يصل إلى نتيجة مفادها: أنّه لا يمكننا أن نقابل بين العرب والإسلام بالعودة إلى التراث، فهو لا يجد أنّ ثمّة عربًا معاصرين، وإنّما العرب هم جزء من الماضي فقط. ويفصل الجابري بين الهويّة الإسلاميّة والهويّة العربيّة، معتبرًا أنّه «لا مجال للمقارنة ولا للمقابلة بين العرب والإسلام داخل المرجعيّة التراثية؛ ذلك لأنّ ما تقدّمه هذه المرجعيّة من عناصر التحديد والتعريف لـ«العرب» و«العروبة» يجعل كلّ من يفكّر داخلها وبواسطة معطياتها وحدها، يجد نفسه يفكّر في العرب أو في العروبة، دون أن يخطر الإسلام في ذهنه، وفي الغالب ما يتّجه بتفكيره إلى الماضي، وكأنّ الأمر يتعلّق بـ«حالة تاريخيّة»[1].

وعندما يقول إنّ العرب اعتنقوا الإسلام؛ فإنّه يشير إلى مسألة ضمنيّة هي: أنّ الإسلام لم يكن عربيًّا، في إشارة منه إلى أنّ العرب في الخطاب العربيّ الحديث هم غير العرب في الخطاب التراثيّ القديم، وهكذا تتحوّل إشكاليّة الجابريّ من إشكاليّة معرفيّة حقيقيّة في علاقة العرب بالإسلام إلى إشكاليّة أيديولوجيّة، بحيث يتخلّى الجابريّ عن موقعه العلميّ ويهبّ إلى مواقع أيديولوجيّة. وكان بعض الباحثين قد وقفوا على هذه المسألة، إذ يرى الطيب تيزيني أنّ الجابريّ «يقف منزوع السلاح: إنّ موضوع بحثه، يتحوّل إلى وهم أيديولوجيّ، وما يعتبره إشكاليّة للفكر العربيّ والعقل العربيّ،

(1) الجابريّ، مسألة الهويّة العروبة والإسلام، م.س، ص34.

يغدو إشكاليّته الخاصّة به وإشكاليّة من ينحون نحوه نظريًّا ومنهجيًّا، ومن ثمّ إشكاليّة من يتكلّم بلسانهم إيديولوجيًّا من الفئات المهمّشة أو الآخذة في التهيمن في المجتمع العربيّ، سواء كان ذلك التكلّم مضمرًا أو مفصحًا عنه»[1].

ثمّ يطرح الجابريّ بعد ذلك أسئلة عن الهويّة العربيّة، فيرى أنّها في الثقافة العربيّة فقط، التي هي مصدر الهويّة الوطنيّة أو القوميّة. والمشكلة أنّ الجابري يخوض في نقاشات زائفة، فهو لا يتحدّث عن العرب بصفة الهويّة العربيّة، بقدر ما يتحدّث عن الوطن العربيّ، وهو يخوض في مسألة التشكيك بمفهوم العروبة داخل الوطن العربيّ، فهو عندما يتحدّث عن الوطن العربيّ يناقش مجموعة من المسائل التي تخص الهويّة العربيّة، وهي كما يصفها الجابري «المسألة الأمنيّة والمسألة السياسيّة والمسألة الثقافيّة»[2].

والمشكلة أنّ الجابريّ يرى أنّ الوطن العربيّ يعاني من مشكلات لا تجعل منه وطنًا عربيًّا، «فالوطن العربيّ ليس موطنًا لجماعة إثنيّة واحدة، بل لجماعات ومجموعات ذات أصول إثنيّة مختلفة، والوطن العربيّ ليس أرضًا لدولة واحدة، بل تتقاسم رقعته الجغرافيّة دول ودويلات بعضها يمتدّ بجذوره إلى الماضي، وبعضها لا جذور له. والوطن العربيّ ليس ميدانًا لتطبيق سياسة ثقافيّة واحدة، بل كلّ دولة فيه لها نظام تعليمها الخاصّ وبرامجها الخاصّة وتوجّهاتها الثقافيّة والأيديولوجيّة الخاصّة»[3].

وإذا ما أردنا أن نقف على رأي الجابري من موقفه من العرب أكثر، فإنّنا نجده يطرح سؤالًا مركزيًّا عن العرب عندما يتساءل ما العربيّ؟ لنجد

(1) تيزيني، طيّب: من الاستشراق الغربيّ إلى الاستغراب المغربيّ (بحث في القراءة الجابرية للفكر العربيّ وفي آفاقها التاريخيّة)، ط1، حمص، دار الذاكرة، 1996م، ص49.
(2) الجابري، محمد عابد: المسألة الثقافيّة في الوطن العربيّ، ط1، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربيّة، 1994م، ص23.
(3) م.ن، ص23.

أنّ الجابريّ ليس لديه جواب على هذا السؤال، بل يعتقد أنّ الإجابة عنه إجابات متعدّدة؛ بحسب من يجيب عن هذا السؤال، فيقول إنّه «سؤال لا يحتمل إجابة واحدة، في الظرف الراهن على الأقلّ. إنّ الجواب سيختلف باختلاف من يُطرَح عليهم هذا السؤال؛ وهم أطراف متعدّدة مختلفة المصالح والرؤى، ممّا يجعل من العربيّ مفهومًا مصنوعًا، صورة تختلف مضمونًا وملامح؛ حسب نوع الوعي الذي ترتسم فيه، والمكان الذي يضعها فيه»[1].

من الجدير أنْ نذكر أنّ الجابريّ ليس مفكّرًا تاريخيًّا بالطبع، أي أنّه لا يحاول الغوص في المشكلات التي يتناولها غوصًا شاقوليًّا، بل إنّه غالبًا ما يناقش المسائل مناقشة أفقيّة؛ وهذا يعود إلى الطابع المثاليّ لفلسفة الجابريّ. كما أنّ الجابريّ لا يمتلك في دراسته لمفهوم الهويّة العربيّة وعلاقتها بالإسلام سوى قراءة تشخيصيّة فحسب، بل نجده أيضًا يفرِّغ التراث من مضمونه النقديّ التاريخيّ ويُبقي على المضمون الأيديولوجيّ للتراث فقط، وأكثر من ذلك فإنّه عندما يتحدّث عن العرب والعروبة؛ فإنّه لا يجد هذا اللفظ سوى في الخطاب العربيّ الذي يبقى مجرّد خطاب غير مرتبط بالواقع؛ إذ يعلن الجابريّ أنّ مسائل كثيرة؛ مثل: «الأصالة والمعاصرة، والدين والدولة، والإسلام والعروبة، والجامعة الإسلاميّة والوحدة العربيّة، والشورى والديمقراطيّة، والمستبد والعادل، والديمقراطيّة السياسيّة والديمقراطيّة الاجتماعيّة، والوحدة والاشتراكيّة، والوحدة وتحرير فلسطين، والعقل والوجدان... إلخ، كلّها قضايا تتمّ معالجتها خارج الواقع؛ أي على مستوى الخطاب فقط»[2].

(1) الجابريّ، مسألة الهويّة العروبة والإسلام.. والغرب، م.س، ص7.
(2) الجابريّ، محمد عابد: التراث والحداثة- دراسات ومناقشات، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربيّة، 1991م، ص185.

وعلى هذا النحو، فإنّ الجابري يمهِّد لطرح قضيّة زائفة يمكن أن نراها في سعيه نحو نسف مفهوم العروبة والإسلام، من موقع أنّه يرى أنّ الخطاب العربيّ هو خطاب راكد وبليد، وأنّه خطاب «يقوم على الركون دومًا إلى نموذج سلف، وعلى اعتماد القياس الفقهيّ وتوظيف الأيديولوجيّ للتغطية على النقص المعرفيّ، والتعامل مع الممكنات الذهنيّة كمعطيات واقعيّة... وأنّ الحاجة - بسبب ذلك- تدعو اليوم، أكثر من أي وقت مضى، إلى تدشين عصر تدوين جديد»[1].

وأكثر من ذلك، فإنّ الجابري في مناقشته للهويّة الإسلاميّة العروبيّة يفترض إجابات لا تستند إلى (العمق) التاريخيّ في الحقل المعرفي العربيّ، وكأنّ تعدّد الإجابة عن مفهوم العروبة والإسلام يطيح بالهويّة نفسها؛ إذ نجد أنّ الجابري يلجأ إلى مماطلة تاريخيّة عندما يرى أنّ الهويّة هي مسألة ماهيّة، ماهيّة الشيء الذي لا يُعطى دفعة واحدة. وإذا كان موقف الجابريّ من الهويّة على هذا النحو؛ فهذا يعني أنّ الجابريّ يشكّك في اكتمال الهويّة العربيّة، بل وفي وجودها أصلًا، ولا يبقى من العرب والعروبة والإسلام سوى الهمّ الأيديولوجيّ عند الجابريّ. فحتى عندما يقوم بمراجعة نقديّة لارتباط العروبة بالإسلام من حيث الهويّة، فإنّه يجد الحلّ في المواقف الأيديولوجيّة من العرب والإسلام معًا؛ ما يدخلنا في حقل مفاضلات خاصّة بالجابريّ، تقوم على تفضيل الدين على القوميّة أو العكس؛ أي تفضيل القوميّة على الدين، فنجده يتحدّث عن الأمة الإسلاميّة؛ ما يجعل سؤال الإسلام والعروبة سؤالًا زائفًا لا معنى له بالنسبة للجابريّ، وهو يعبّر عن ذلك بقوله: «إنّ الأمّة الإسلاميّة أعمّ، وأعلى؛ بمعنى أنّها تتكوّن من قوميّات عديدة مختلفة، هنا في هذا الطرح الحدّيّ للمسألة تتمّ المطابقة بين الزوج: عروبة/إسلام، والزوج: قوميّة/دين، وتصبح المسألة بالتالي مطروحة على شكل الاختيار بين القوميّة والدين. وإذا كانت القوميّة والدين لا

(1) الجابريّ، التراث والحداثة- دراسات ومناقشات، م.س، ص191.

تطرحان بصورة تجعل العلاقة بينهما علاقة تناقض صريح، فمن الواضح أنّ مثل هذا الطرح يجعل الواحد منهما يتجاهل الآخر ويلغيه من حسابه»[1].

2. أزمة الهويّة بين التراثيّ والنهضويّ عند الجابريّ:

في مناقشة الجابريّ للعروبة والإسلام في الخطاب النهضويّ العربيّ، يواجهنا -أيضًا- بعدم وجود مرجعيّة معرفيّة واحدة، بل إنّه يتحدّث عن مرجعيّات خاصّة لكلّ مَنْ يطرح قضية الهويّة بين العروبة والإسلام في المرجعيّة النهضويّة، فهو يرى أنّ المشكلة في تعدّد هذه المرجعيّات، فيقول: «وثنائيّة العروبة والإسلام في الخطاب العربيّ المعاصر من المسائل التي يدور حولها نقاش من هذا القبيل؛ لأنّ كلّ طرف يتحدّث عن العروبة وعن الإسلام من داخل مرجعيّته الخاصّة، مرجعيّته المعرفيّة وليس فقط الأيديولوجيّة»[2].

وأكثر من ذلك، فإنّ الجابريّ الذي نعتقد أنّه ينتمي إلى الثقافة الإمبرياليّة، يحيل مسألة العروبة والإسلام إلى مشكلة ثقافيّة فحسب، بل وإلى مشكلة لغويّة لا أساس لها في الواقع التاريخيّ، لنجد أنّه يستعرض لفظ العروبة في القواميس والآراء الشخصيّة لعلماء اللغة على نحو مستفيض، فعندما يطرح ثنائيّة الإسلام والعروبة في المرجعيّة التراثيّة، نجده يستفيض في الحديث عن العروبة بالمعنى اللغويّ، وليس في البحث عن العروبة في التعيينات التاريخيّة، وكيف تشكّلت العروبة عبر التاريخ؟ فهو يفرد صفحات كثيرة للحديث عن الجذر اللغويّ لمفهوم العروبة، حيث يقول: «إذا نحن بحثنا في المرجعيّة التراثيّة، ولكي نشخّص المسألة أكثر، نقول: إذا سألنا عالمًا من علماء الأزهر بمصر أو القرويّين بالمغرب أو غيرهما من المعاهد المماثلة، فإنّنا سنجد مفهوم العروبة لديه يتحدّد أوّلًا وقبل كلّ

(1) الجابريّ، مسألة الهويّة العروبة والإسلام.. والغرب، م.س، ص26.
(2) م.ن، ص30.

شيء بناء على ما تذكره القواميس العربيّة القديمة. والملاحظة التي لا بدّ من إبرازها في هذا الصدد هي أنّ لفظ العروبة كان قليل الاستعمال قبل القرن الماضي، مثله مثل العروبيّة مرادفة»[1].

وعندما ينتقل الجابريّ للحديث عن العرب والإسلام في المرجعيّة النهضويّة، فإنّه -أيضًا- يسعى إلى رفع المشكلة عن كاهل الثقافة الغربيّة، فهو لا يريد أن يعترف بأنّ الصراع على الهويّة الإسلاميّة هو صراع بين مرجعيّتين؛ هما: المسلمون من جهة، والمرجعيّة الأوروبيّة من جهة أخرى، إنّه أيضًا هنا في حقل المرجعيّة النهضويّة يتحدّث عن تعدّد المرجعيّات، ويختلق مرجعيّة جديدة، بل مرجعيّات جديدة في هذا الصدام الحقيقيّ بين المرجعيّتين الغربيّة والعربيّة الإسلاميّة؛ ليضيف عليها مرجعيّة أخرى، ففي معرض حديثه عن العرب والعروبة والإسلام نجده يقول: «من المشاكل الفكريّة التي نعاني منها، نحن العرب، اليوم، تعدّد المرجعيّات في ثقافتنا المعاصرة، وسنكون مخطئين إذا نحن اكتفينا بالتمييز بين مرجعيّتين فقط في هذه الثقافة: مرجعيّة تراثيّة عربيّة إسلاميّة، ومرجعيّة عصريّة أوروبيّة الأصل والهويّة؛ ذلك لأنّه بالإضافة إلى أنّ هاتين المرجعيّتين تقومان كلتاهما على التعدّد (مرجعيّة الفكر الشيعيّ تختلف عن مرجعيّة الفكر السنّي، مثلما أنّ مرجعيّة الفكر الفرنسيّ فقط تختلف عن مرجعيّة الفكر الإنغلوسكسونيّ، فإنّ هناك مرجعيّة ثالثة، هي مزيج بين المرجعيّتين التراثيّة والأوروبيّة؛ وهي المرجعيّة التي أصبح يشكّلها فكر ما نسمّيه اليوم بعصر النهضة العربيّة الحديثة»[2].

ويقودنا الجابريّ في مسالك وعرة كلّ ما يمكن أن ندركه فيها أنّه يسعى إلى إيجاد قطيعة ما بين العرب المسلمين في المرجعيّة التراثيّة، والعرب المسلمين في المرجعيّة النهضويّة، وأيضًا نجده يسعى، في المرجعيّة

(1) الجابريّ، مسألة الهويّة العروبة والإسلام.. والغرب، م.س، ص31.
(2) م.ن، ص36-37.

النهضويّة، إلى البحث عن أصل جديد للعرب والعروبة، فهو يرى أنّ كلًا من مفهوم العرب والعروبة في المرجعيّة النهضويّة يخلعان«لباسهما التراثي ليرتديا لباسًا آخر جديدًا، فالمعنى التراثي للمفهومين مستبعد تمامًا. العرب في المرجعيّة النهضويّة مفهوم جديد لا يتحدّد لا بالانتساب إلى قحطان أو إلى عدنان، ولا بالتصنيف إلى عرب وأعراب ولا إلى عرب بائدة وأخرى عاربة وثالثة مستعربة، ولا بالسكنى في الجزيرة العربيّة»[1].

ومرّة أخرى يعود بنا الجابريّ إلى قطيعة تاريخيّة داخل الثقافة العربيّة، بل وداخل مفهوم العروبة؛ إذ لا يستطيع أنْ يتحدّث عن العرب؛ إلّا من خلال مفاهيمه اللاتاريخيّة، ومن خلال وجهة النظر اللاتاريخيّة؛ محاولًا بذلك اختراق مفهوم العروبة والهجوم عليها هجومًا أيديولوجيًّا لا تاريخيًّا، فهو عندما يتحدّث عن زمن الفكر العربيّ الحديث نجده يتحدّث عن جثّة هامدة، حيث يصف هذا الزمن بقوله: «زمن الفكر العربيّ الحديث والمعاصر زمن ميّت أو قابل لأنْ يُعامل كزمن ميّت»[2].

ويرى الجابريّ أنّ العرب لم يحدّدوا أنفسهم في المرجعيّة النهضويّة؛ إلّا من خلال أنّهم ضدّ الآخر، ضدّ أحد ما، ولا يمكن فهم ما يقوله الجابريّ عن الهويّة العربيّة والإسلاميّة؛ إلّا من هذا الاتجاه نفسه، إذ يرى أنّنا قد «لا نستطيع أن نحدّد بالضبط التاريخ الذي انبعث فيه مفهوم العرب ومن بعده أو بمعيّته مفهوم العروبة في الخطاب السياسيّ والإيديولوجيّ العربيّ الإسلاميّ، ولكنّنا نستطيع أن نؤكّد أنّ الدلالة التي أُعطيت لهما، أوّل مرّة في ذلك الخطاب ترتبط بـ«النهضة»، وبالتالي فهي دلالة نهضويّة»[3].

وأمّا الحجّة الأساسيّة التي يسوقها الجابريّ للفصل بين الإسلام والعروبة وعدم جواز مقابلة الإسلام بالعروبة؛ فهي أنّ الإسلام يجب أن يقابل بطرف

(1) الجابريّ، مسألة الهويّة العروبة والإسلام.. والغرب، م.س، ص38.
(2) الجابريّ، الخطاب العربيّ المعاصر، المعطيات المقدّمة سابقًا، ص178.
(3) الجابريّ، مسألة الهويّة العروبة والإسلام.. والغرب، م.س، ص39.

دينيّ، وليس بطرف قوميّ أو إثنيّ أو عرقيّ. ولهذا فإنّ الجابريّ ينتهي إلى اعتبار المقابلة التراثيّة؛ أي من خلال المرجعيّة التراثيّة بين الإسلام والعروبة، أمر زائف؛ حيث يقول: «الإسلام كما يتحدّد داخل مرجعيّته الخاصّة لا يحتمل ولا يقبل أن يوضع كطرف في ثنائيّة مع طرف آخر غير الأطراف التي هي أديان. لمّا كان التقابل الذي يقيمه الإسلام بينه وبين أيّ طرف آخر هو تقابل يقع على مستوى الدين فقط، فإنّ أي طرف آخر هو تقابل يقع على مستوى الدين فقط، فإنّ أي طرف آخر يوضع في علاقة تقابل معه سيعتبره من يفكّر من داخل المرجعيّة الإسلاميّة الخالصة بمثابة دين مغاير للإسلام أو بمثابة نفي وإلغاء له»[1].

وأكثر من ذلك فإنّ الجابريّ يرفض المقابلة بين الإسلام والعروبة -أيضًا- في المرجعيّة النهضويّة، «فلا الإسلام كما يتحدّد في المرجعيّة التراثيّة، ولا الإسلام كما يصنّف في المرجعيّة النهضويّة، يقبل أنْ يُوضع كطرف في ثنائيّة تقابليّة مع العروبة، فأيّ إسلام إذًا هذا الذي يُقحَم كطرف في ثنائيّة العروبة والإسلام الرائجة كثيرًا في خطابنا المعاصر»[2].

وعلى النحو الذي رأينا، نجد أنّ الجابري يسعى إلى تقويض الهويّة بطرفيها الإسلاميّ والعربيّ؛ عندما يرفض المقابلة بين الطرفين، كما يرفض اعتبار مشكلة الهويّة هي مشكلة متوقّفة على الخلاف بين المرجعيّتين الأساسيّتين؛ الإسلاميّة العربيّة، والمرجعيّة الغربيّة الأوروبيّة المركزيّة، ونجده يعمل على خلق مرجعيّات كثيرة؛ ما يؤدّي إلى تبديل مفهوم الهويّة وبعثرته بين تلك المرجعيّات.

3. مشكلة الهويّة بين الماضي والحاضر/ الأنا والآخر الغربيّ عند الجابريّ:

يعيد الجابريّ إلى ساحة النقاش مشكلة المستقبل؛ أي مستقبل الهويّة

(1) الجابريّ، مسألة الهويّة العروبة والإسلام.. والغرب، م.س، ص47.
(2) م.ن، ص50.

العربيّة الإسلاميّة، في ظلّ علاقة الإسلام والغرب، وهنا لا بدّ أن نشير إلى أنّ الجابريّ، يمتلك في أبحاثه نزوعًا مركزيًّا أوروبيًّا لكي نفهم في ما بعد كيف سينظر الجابري إلى دور الآخر في تحديد هويّة «الأنا»؟ فهو يرفض الحديث عن المستقبل؛ إلّا إذا كان مرتبطًا بالآخر؛ بمعنى أنّ حضور الآخر في حياة «الأنا» هو أمر ضروريّ للتفكير في المستقبل، ويشير هنا إلى ظاهرة التحدّي في تكوّن الحضارات، عندما يقول: «إنّ أي مشروع للمستقبل يبنيه الإنسان لنفسه لا بدّ من أن يؤخَذ فيه بعين الاعتبار، بصورة واعية أو لا واعية، فعل الآخر أو ردود فعله: آخر اليوم وآخر الغد؛ ذلك لأنّه إذا كان الإنسان اجتماعيًّا بطبعه، كما يقولون، فإنّ مستقبله مثل حاضره مشترك بطبعه هو أيضًا»[1].

فالجابريّ لا يتحدّث عن الحضارات؛ إلّا من خلال مقارنتها مع بعضها؛ من ذلك عندما يتحدّث عن الحضارة الإسلاميّة، نجده يقول: «إذا جاز لنا أن نسمّي الحضارة الإسلاميّة بإحدى منتجاتها؛ فإنّه سيكون علينا أن نقول عنها إنّها حضارة فقه؛ وذلك بنفس المعنى الذي ينطبق على الحضارة اليونانيّة؛ حينما نقول عنها إنّها حضارة فلسفة»[2].

وأكثر من ذلك، فإنّ الجابريّ ينظر إلى الآخر، الذي هو هنا الآخر الأوروبيّ؛ بوصفه صاحب الهويّة الأصليّة والحضارة القويّة، فهو عندما يتحدّث عن التمركز الحضاريّ الأوروبيّ نجده يتحدّث عن هذه الحضارة على نحو زائف، وفيه الكثير من الخُلف المنطقيّ والتاريخيّ عندما اعتبر أنّ أيّ تمركز حضاريّ متوسّطي يختزل حضارات وثقافات العالم برمّته، مطيحًا -بذلك- بالحضارات التي نشأت في أفريقيا وآسيا، ومنها بشكل خاصّ الحضارات الصينيّة والهنديّة واليابانيّة والبابليّة.

(1) الجابريّ، مسألة الهويّة العروبة والإسلام.. والغرب، م.س، ص90.
(2) الجابري، تكوين العقل العربيّ، المعطيات المقدّمة سابقًا، ص96.

انطلاقًا من هذه الرؤية لحضور الماضي في المستقبل العربيّ والإسلاميّ، فإنّنا نضع يدنا على مشكلة تتعلّق بالهويّة، وهي مشكلة اختراق الهويّة من خلال اختراق الظاهرة الثقافيّة. وأيضًا هنا يستبعد الجابريّ أن يكون هذا الاختراق مجرّد رغبة في الهيمنة من قبل الغرب، بل ويضيف هنا أنّ المواقف التي يتّخذها الجسد الثقافيّ المخترق -أيضًا- تساعد على تدمير الهويّة وخرقها على نحو يطيح بها، فيجدها الجابري في ردود الفعل السلبيّة التي نقاوم بها نحن المستهدفين والمعرّضين للاختراق، هذه الردود التي «لا بدّ أن تكتسي عند بعضنا على الأقلّ شكل نكوص إلى الوراء للتثبّت في مواقع حصينة قصد الدفاع، فنكون هكذا أمام نزعة ماضوية ترى المستقبل في الماضي، وليس في ما يأتي من الغرب وحضارته، وهكذا نكون فعلًا أمام اختراق ثقافيّ خارجيّ يخرّب محاولات التجديد والتطوّر داخل الثقافة العربيّة»[1].

بل إنّ ردود الأفعال، وبالتالي تكوّن الهويّة العربيّة الإسلاميّة، يجده الجابريّ بتحريض من هذا الآخر الذي ينظر إليه الجابريّ نظرة استعلاء، أكثر ممّا ينظر إليه نظرة نقديّة في حضوره داخل حياة الأنا العربيّ. ومن ذلك، ما يتحدّث عنه الجابريّ عندما يذكر أنّ تحدّد هويّة العرب بالمعنى النهضويّ قد كان بسبب حضور العنصر التركيّ في فضاء الحضارة العربيّة، «ولعلّ ما يجدر التأكيد عليه هنا أنّ انبعاث كلمتَي عرب وعروبة؛ كمفهومين نهضويّين قوميّين لم يكن موجّهًا في المرحلة الأولى ضدّ الأتراك؛ بوصفهم يحكمون العرب باسم الخلافة الإسلاميّة، بل بوصفهم جماعة حاكمة انبعث في صفوفها وعي قوميّ (جماعة تركيا الفتاة) يقوم على فصل العنصر التركيّ وتفضيله إلى تسيّده عليها وجعله يحتويها احتواء»[2].

(1) الجابريّ، المسألة الثقافيّة في الوطن العربيّ، م.س، ص211.
(2) الجابري، مسألة الهويّة العروبة والإسلام.. والغرب، م.س، ص39.

وبالإضافة إلى هذه المسألة؛ أي حضور العنصر التركيّ في الأنا العربيّة، يذهب الجابريّ أيضًا إلى ذِكر دور التوسّعات الأوروبية في تحديد هذه الهويّة؛ أي الهويّة العربيّة، وكأنّ الجابريّ هنا يريد أن يتحدّث عن هويّة عربية مستَلَبة ليس فيها سوى عنصر التقبّل والخضوع، فيزيح عن هذه الهويّة وجهها الفاعل والنشط في التأثير والتأثّر في الحضارات المختلفة عبر التاريخ، فهو يكتب عن تأثير التوسّع الأوروبيّ ودوره في انتشار الإسلام والعروبة فيقول: «غير أنّ الحكم كما تجسّد في سياسة التتريك لم يكنْ الآخر الوحيد الذي كان يتهدّد العرب آنذاك، بل لقد كان هناك التوسّع الاستعماريّ الأوروبيّ الذي كان يستهدف الامبراطوريّة العثمانيّة ككلّ، هذه الإمبراطوريّة التي كانت تستظلّ بظلّ الخلافة الإسلاميّة»[1].

هكذا نجد أنّ الجابري لا يريد أنْ يوضّح في بحثه للهويّة الإسلاميّة في ظلّ العلاقة مع الغرب، أنّ هذه الهويّة قد تشكّلت بفعل مِن تدخّل الآخر وسطوته وهيمنته على حياة الأنا العربيّ والإسلاميّ، وإنّما نجد موقفًا لا تاريخيًّا؛ بعيدًا عن العلميّة والموضوعيّة في وجود الهويّة الإسلاميّة وفي علاقتها مع العروبة في شروطها التاريخيّة وخصوصيّاتها العقديّة.

خاتمة:

وفي الختام، نصل إلى استنتاجات مهمّة نجملها بالآتي:

1. مارست العولمة فعلًا هجوميًّا في محاولة لجعل الهويّة العربيّة الإسلاميّة هويّة فاقدة لقدرتها على التفاعل والوجود؛ بوصفها هويّة عالميّة قادرة على التأثير والتأثّر.
2. امتلكت الهويّة الإسلاميّة مقوّمات سمحت لها بالاستمرار عبر التاريخ؛ وهو أمر يشير إلى أصالة الهويّة الإسلاميّة.

(1) الجابريّ، مسألة الهويّة العروبة والإسلام.. والغرب، م.س، ص41.

3. طرح الجابريّ مفهوم الهويّة العربيّة الإسلاميّة من خلال منهج «لا تاريخيّ» اعتمد فيه على الأيديولوجيا.

4. ركّز الجابريّ على الحقل الأيديولوجيّ، أكثر من حقل المعرفة التاريخيّ، بحيث أراد من ضمن ما أراد أن يشوّه المرجعيّات التراثية والنهضويّة للهويّة الإسلاميّة.

5. أراد الجابريّ من موقع نظرته المركزيّة وإعجابه بالمركزيّة الأوروبيّة أن يقلّل من شأن الهويّة الإسلاميّة.